سَيِّد قُطُب

الحَيَاة

فِي ظِلَالِ القُرْآنِ

مركز الإعلام العربي

سَيِّدْ قُطْبْ

الحياة في ظِلالِ القُرْآنِ

مركز الإعلام العربي



● الكتـــاب: الحياة في ظلال القرآن

● تأليــــف: سيد قطب

● قياس الصفحة:

١٢ × ١٧

● رقم الإيداع:

٣٧٤٥/ ٢٠٠٩

● الترقيم الدولي:

X - ٢٢٨ - ٣٦٧ - ٩٧٧

مركز الإعلام العربي

ص.ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

● هاتف: ٣٧٨١١١٩٣/٣٧٨١١١٩٤ / ٠٠٢٠٢

٠٠٢/ ٠١٠٠٠٢٧٠٤٤

● التوزيع: ٣٧٤٤٥٤٥٥/٠٠٢٠٢

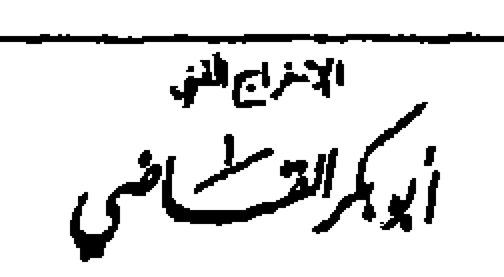
٠١٠٠٠٢٧٠٢٥/٠٠٢

● فاكس: ٣٧٨١١١٩٥/٠٠٢٠٢

● البريد الإلكتروني:

media-c@ie-eg.com

mediacenter55@hotmall.com



تصميم الغلاف

كمال عبده

الطبعة الرابعة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



الشاذلي، سيد قطب إبراهيم، ١٩٠٦-١٩٦٦، الحياة في ظلال القرآن/ سيد قطب - الجيزة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٩ ٥٦ص، ١سم تدمك، X-٢٢٨-٣٦٧-٩٧٧

١- القرآن- تفسير

أ- العنوان ٢٢٧



مقدمة الناشر

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على نبيه محمد (ﷺ)؛ ليكون مرشدًا ومربيًا وقائدًا لهذه الأمة، وليكون دستورًا شاملاً لكل مناحي حياتها.

والأمة المسلمة اليوم في أشد الحاجة إلى أن يصبح القرآن كتابها العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل الذي تستمد منه منهج الحياة، ونظام المجتمع، وقواعد التعامل في كل شيء.

إن هذا القرآن إنما جاء ليبني عقيدة المسلم وتصوره وأخلاقه ومشاعره وأوضاعه، وليقود الأمة المسلمة في معركتها مع أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج،

وهي على أتم استعداد للقائهم والتفوق عليهم بمتانة بنائها الداخلي: الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي والتنظيمي..

وهذه الرسالة التي يسر **مركز الإعلام العربي** أن يقدمها لقرائه الأعزاء، هي دعوة للحياة الهانئة **في ظلال القرآن الكريم**، كما عاشها وسطر وقائعها الشهيد **سيد قطب** - رحمه الله - إحياءً للقلوب المؤمنة، التي تدرك أن سر سعادتها يكمن في تمسكها بكتاب الله (ﷻ)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

الناشر

تقديم

بقلم

الأستاذ عبد الله الطنطاوي

صاحب هذه الكلمات الوضيئات، هو صاحب التفسير البديع: (**في ظلال القرآن**)، فسّر فيه القرآن العظيم تفسيرًا جديدًا غير مسبوق وغير ملحوق، وكان فيه صاحب مدرسة جديدة في التفسير، نستطيع أن نطلق عليها اسم (مدرسة التفسير الحركي)؛ لما أضافه من معانٍ وأفكار حركية وتربوية، وسياسية، واجتماعية، بل يطيب لي أن أقول: إنها (**مدرسة الحياة في ظلال القرآن**).

فهو - في رأيي - أعظم كتاب دعوي بعد كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه العظيم (عليه أفضل الصلاة والتسليم) يضع المسلم في معترك الحياة بمجاليها كافة، فيحيا

في رحاب الإسلام حياة روحية شجية، وحياة عقلية سنيّة، فيكون ابن زمانه، يعرفه معرفة حقيقية، وهو مستقيم على صراط الإسلام وفسطاط المسلمين، لا يتجاذبه يمين ولا يسار.

قرأت عددًا من كتب التفسير، وأفدت منها الكثير، ولكنها لم تجعلني أحيا في رحاب القرآن الكريم، ولم تمكّني من تفيؤ ظلاله الوارفة، كما كان لي مع الظلال، الذي فهمت منه معنى (القرآن دستورنا).

قبل أن يخط صاحب الظلال كلمة منه، كان قد بلغ الذروة في الأدب والنقد، ووضع نظرية في النقد الأدبي أطلق عليها (نظرية الصور والظلال في النقد الأدبي)، ثم (المنهج النفسي)، ثم بشّر بنظرية (مذهب الإسلامية في الأدب، منه كان المنطلق، ثم جاء من بعده شقيقه الأستاذ المبدع المفكر الأديب الكبير **محمد قطب** ، شارح فكر سيِّد، وقعّد لنظرية الأدب الإسلامي، والإسلامية في الأدب، ثم جاء من بعده نقاد ومفكرون كالدكتور

نجيب الكيلاني وسواه، وبهذا يكون الأستاذ الشهيد سيد هو الرائد المبشر بالإسلامية، وأخوه الأستاذ محمد، حفظه الله تعالى، ومن بعده من المؤصلين لهذا المذهب الأدبي الذي ذاع صيته في الآفاق، وتكاثر الأدباء والشعراء المنتمون إليه.

في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، اتجه سيد إلى الإسلام، وغدا أبرز رواد الفكر الإسلامي في خمسينياته، بعد أن دعا إلى بعث إسلامي طليعي وإلى استئناف الحياة الإسلامية على أساس الإسلام كافة.

كما دعا إلى العزلة الشعورية المتعلقة بإحساس المسلم ومشاعره، لا العزلة الحسيّة، وهذه العزلة الشعورية تنشأ تلقائيًا في حسّ المسلم الملتزم تجاه من لا يلتزمون بأوامر الإسلام، في حدود ما أحلّ الله من حلال، وما حرّم من حرام، وسيد - بهذا وغيره - لم يصدر أحكامًا شرعية على الناس، ولم يقبل بتكفير المسلمين، شعاره في ذلك: نحن دعاة ولسنا قضاة، يقول سيد:

«إن مهمتنا ليست إصدار الأحكام على الناس، ولكن مهمتنا تعريفهم بحقيقة لا إله إلا الله؛ لأن الناس لا يعرفون مقتضاها الحقيقي، وهو التحاكم إلى شريعة الله».

هذا هو سيد قطب، والعودة إلى كتبه: في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق، وخصائص التصور الإسلامي خاصة، تظهر مدى الإفك الذي رماه به الأفّاكون المفترون من أعداء الإسلام، وأعداء الدعاة إليه، ومن الجهلة والمغرضين الذين يزعمون أنهم المسلمون، وهم لا يفهمون من الإسلام ما يؤهلهم لهذا الادعاء..

ولو قرؤوا كتب سيد بعقول نقية، وقلوب صافية، لعرفوا سيدًا على حقيقته، وليس سيدًا المفترى عليه، ولعرفوا الأسباب الحقيقية التي دفعت الطغاة إلى قتله، كما قتلوا إمامه الشهيد من قبل، وكما قتلوا عددًا من الأئمة والقادة من قبل ومن بعد.

إنني أدعو كل من يريد أن يفهم كتاب الله العزيز،

ويحيا في ظلاله الوارفة، وفي أفيائه وجنانه...

أدعوهم إلى قراءة الظلال، وهذه المقدمة التي أتشرف بتقديمها **(الحياة في ظلال القرآن)** خير دليل وأكبر برهان على صحة ما أقول، فهي - **الحياة في ظلال القرآن** - فاتحة الظلال.

إنها والظلال، فوق الشعر وفوق النثر.

إنها إلهامات من وحي كتاب الله الذي عاش سيد في رحابه، وتماهى به؛ فكتب ما لم تكتبه يد من قبل.

وأدعو الأدباء والنقاد والمثقفين إلى العكوف على الظلال، فسوف ينهلون منه ويعبّون من رحيقه المختوم، ومن معينه الصافي، ما لا يجدونه في سواه.

إن أرادوا فهم القرآن العظيم، كما فهمه وعبّر عنه سيد، وإن أرادوا منه أدبًا رفيعًا هيهات أن يجدوه عند غير سيد.

وإن أرادوا ثقافة، شاملة، عميقة..

وإن أرادوا مثل هذا الكتاب الجليل، صفاء لغة،

وجمال أسلوب، وروعة معانٍ، وكثافة أفكار، وعمق تفكير..

إلى جانب صدقه وإخلاصه وشفافيته الروحية.

وليجربوا، فسوف يقعون على كنز ثمين، وسوف يحمدون فعل الداعية الكبير **الشيخ عبد الله العقيل** على اختيار مقدمة الظلال هذه، دعوة منه، لنحيا **في ظلال القرآن العظيم**



مقدمة

بقلم: أحمد أحمد جاد

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وإمام المتقين، وقائد المجاهدين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

فإنه حين عاش المسلمون **في ظلال القرآن العظيم** واهتدوا به واتبعوه.. فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، ودانت لهم الدنيا، وعمَّ الرخاء والصلاح والعدل، وتحرر الإنسان من عبودية الإنسان.

ثم حدث استرخاء، وتنازع على أطماع الدنيا.. ففشلوا وذهبت ريحهم، فأصابهم الوهن وضاعت الخلافة.. وقد تعرض الدعاة إلى الله للأذى والتضييق والاضطهاد و... والتشويه وإلقاء الشبهات والاتهامات.. حتى لا يُسمع لهم.

وقد قيَّضَ الله لهذه الأمة علماء أفاضل، أُوذوا وتحملوا وصبروا لاستنقاذ المسلمين وإعادة الخلافة.. كل منهم أدلى بدلوه.. وكان من هؤلاء الشهيد **سيد قطب**، الذي عاش **في ظلال القرآن**، ووضع فيه خلاصة فكره.. وكانت المحن والشدائد فاتحة خير له؛ إذ استثمرها في العيش مع القرآن واستخراج كنوزه التي تتجدد كما يتجدد الليل والنهار، والشمس والقمر.

حياة سيد قطب الأدبية

سيد قطب من مواليد ١٩٠٦م، وفي ١٩١٩م كان يخطب في مساجد القرية وينشد الشعر، اتجه **سيد قطب** إلى الأدب، وكان من تلاميذ العقاد.. وفي الأربعينيات تبوأ مركز الصدارة في النقد الأدبي بخاصة، ونشرت مقالاته النقدية في الصحف والمجلات.. ألَّفَ: كتب وشخصيات، والنقد الأدبي... أصوله ومناهجه، فكان الناقد الأول في مصر في ذلك الحين.

كانت لسيد قطب مواهب مثل: الذكاء والنبوغ وحب البحث والدراسة والتحليل.. وكان يمضي الساعات في القراءة والتأمل.. ثم يخرج بعد هذا بالتحليل الصائب، ما ترك مجالاً من مجالات الأدب والفكر إلا تحدث فيه، كان واسع الاطلاع، ذا ثقافة عريضة وعقلية كبيرة.

اتجه إلى الكتابة عن الإسلام، فأصدر: التصوير الفني في القرآن سنة ١٩٤٥م، ثم أصدر بعد ذلك عدة كتب تعالج أمراض المجتمع، منها العدالة الاجتماعية في الإسلام.. فكان حربًا على الشيوعية والأوضاع التي تتحكم في البلاد.

وفي سنة ١٩٥١م، ألَّف: معركة الإسلام والرأسمالية. وكتب في فصل: "في الإسلام خلاص": إنه لا علاج لهذه الأمة إلا بالإسلام، ثم كتب في مجلة "المسلمون" مقالات: "**في ظلال القرآن**"، ثم أعلن عن إصداره في أجزاء مستقلة، وبدأ يظهر الجزء الأول من الظلال في سنة ١٩٥٢م، ثم اعتقل في سنة ١٩٥٤م، بعد أن أصدر ستة

عشر جزءًا من الظلال.. ثم نشر بقية الأجزاء بعد التعديل فيها حتى تم "**في ظلال القرآن**" الذي بين أيدينا.

سيد قطب يتأمل في ظلال القرآن

عاش **سيد قطب** يتأمل **في ظلال القرآن** مدة ٢٥ عامًا، يتأمل في الأنفس والآفاق، في غاية الوجود كله، والوجود الإنساني، فأحس بنعمة الحياة والبركة في العمر.. يتأمل في التصور الإسلامي الرفيع.. النظيف.. وفي التصورات الجاهلية.. وكيف تعيش في المستنقع الآسن وفي الدرك الهابط والظلام البهيم، وعندها ذلك المرتع الزكي وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء.

لقد أيقن **سيد قطب** أن هذا الوجود ليس فلتة عابرة ولا مصادفة غير مقصودة.

رأى **سيد قطب** أن البشرية تُعاني وتتخبط وتتحرف عن السنن الكونية وتتصادم مع الفطرة.. بعيدًا عن ظلال القرآن، ويقول في نفسه: أي شيطان يقود خطامها إلى هذا الجحيم..؟! يا حسرة على العباد!!

عاش يتأمل في حال المسلمين وبُعْدهم عن كتاب ربهم! وحال البشرية البائسة، ثم انتهى إلى قرار حاسم: أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة له ولا بركة ولا طهارة ولا تناسق مع الكون ونظرة الحياة، إلا بالرجوع إلى الله... لابد للبشرية أن تعود بالحياة كلها إلى منهج الله، والتحاكم إليه وحده في جميع حياتها.. وإلا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للناس، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله.

لقد جاء الإسلام وتسلَّم قيادة البشرية بعد أن فسدت الأرض.. وأسِنَت الحياة.. وذاقت الويلات من القيادات الضالة المُضلة.

لقد أنشأ القرآن للبشرية تصورًا جديدًا عن الوجود والحياة والقيم والنظم.. لقد حقق القرآن للبشرية المجتمع الفريد القدوة.. حققه واقعًا.. وكان هذا مولدًا جديدًا في تحرير الإنسان.

ثم ماذا؟ ثم وقعت النكبة، النكبة القاصمة، ونُحِّيَ الإسلام عن القيادة.. لتتولاها الجاهلية مرة أخرى.

يرى سيد قطب أن الزمان قد استدار، وأن الجاهلية عادت من جديد، ويجب أن يعود الإسلام من جديد، وبالطريق الذي بدأ به أول مرة.

كيف تفهم القرآن؟

بدأ سيد قطب قراءة القرآن بقصد المتعة العقلية والأدبية.. وبعد أن عاد من أمريكا واتصل بالإخوان.. وعاش محنة السجن، وتذوَّق حلاوة القرآن، بدأ يتذكر نزوله في مكة والجاهليةُ تُعذِّب المؤمنين، فأدرك أن فهم القرآن ليس فقط في معرفة الألفاظ والعبارات.. أو مجرد تفسيره، وإنما العيش معه في الظروف التي صاحبت نزوله، والجماعة المُسلمة تتلقاه، وهي في الشدة والمحنة، وهي تجاهد به المشركين في مكة، فقرأ القرآن بقصد العمل والحركة به.

كان يرى أن فهم القرآن يأتي من التحرك به والعيش

في ظلاله والصبر على مشاق الطريق، ومواجهة الجاهلية بنصوصه، وهذا هو الميدان الصحيح، أما مجرد المعرفة والثقافة، فهذا ضياع للجهد والعمر.

يقول سيد: إن هذا القرآن لا يكشفُ أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به.. ومن ثَمَّ يتذوقونه ويدركونه؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين به خطابًا مباشرًا كما خوطبت به الجماعة الأولى فتذوّقته وأدركته وتحركت به (الظلال: ١٨٩٤ بتصرف).

ويقول: والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون، يدرسونه دراسة بيانية فنية لا يجدون من حقيقته شيئًا.. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبدًا، وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله والدينونة للطاغوت من دون الله! (الظلال: ١٨٦٤ بتصرف).

ويقول: إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية... والبشرية الضالة؛ لردها إلى الإسلام من جديد، والذين

يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده، هؤلاء وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن؛ لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه.. ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه؛ لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا فضل من الله كبير (الظلال: ١٩٤٨ بتصرف).

سيد قطب في أمريكا

ذهب سيد قطب إلى أمريكا في بعثة لزيارة الجامعات والمعاهد العلمية هناك، حيث يطلعُ على المناهج الفنية في التربية والتعليم ليطبقها على وزارة المعارف آنذاك عند عودته إلى مصر.. وكان الغرض من هذه البعثة إبعاده عن مصر وإفساده أخلاقيًا وفكريًا، وحتى يعود أداة طيعة لتنفيذ ما يراد منه.. ولكن الله ثبَّته.

درس المجتمع الأمريكي وسجَّل ملاحظاته.. وكشف

عن الانحطاط الخُلقي هناك، وكان كثير من الشباب المثقف يجعل المجتمع الأمريكي مثله الأعلى.

وفي أمريكا تأثر بدعوة الإخوان المسلمين، وذلك عندما تمَّ اغتيال الإمام حسن البنا بإيعاز من الدول الاستعمارية في فبراير ١٩٤٩م، حيث شاهد مظاهر الفرح والشماتة في المنتديات وأجهزة الإعلام هناك.. وقد خرجوا يتبادلون التهاني ويرقصون؛ لأنهم تخلَّصوا من رجل خطير على الغرب وأمريكا.

وقد أدهش سيد (رحمه الله) أنه لا يعرف حسن البنا وهو من مصر! وهذا شأنه في أمريكا والغرب، فقرر أنه إذا عاد إلى مصر فسوف ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين.

إن أمريكا تحرص على عدم مهاجمة الإسلام مباشرة.. لكنها تهاجم المتمسكين بالإسلام الذين يريدون عودة الخلافة الإسلامية، وهؤلاء تصفهم بالإرهاب، أما عامة المسلمين الذين لا يهمهم من يحكمهم، فهي

تمدحهم طالما أن ولاءهم لأمريكا وليس لغيرها.

يقول سيد (ﷺ): إن الإسلام الذي يريده الأمريكان وحلفاؤهم في الشرق الأوسط ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار أو الطغيان.. إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم!

أعداء المسلمين يخدعون المسلمين

يقول سيد قطب: إن أعداء المسلمين لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية التي تجد في قرارتها الإيمان بوجود الله.. إنهم لا يفلحون في هذا، إنما يفلحون في تحويل هذا الدين إلى مشاعر وشعائر، وطرده من واقع الحياة، وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله، مع أن هناك أربابًا أُخَر يُشَرِّعون لحياتهم من دون الله.. وهم يستهدفون الإسلام قبل كل دين؛ لأنهم يعرفون من تاريخهم أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين، وأنهم غالبو أهله طالما لا يحكِّمونه في حياتهم مع توهمهم أنهم لا يزالون مسلمين!!

إنهم يئسوا أن يحولوا الناس إلى الإلحاد عن طريق المذاهب المادية، كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار؛ ذلك أن الفطرة البشرية تنفر من الإلحاد وترفضه.. وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام.. (الظلال: ١٠٣٢ بتصرف).

وفي موضع آخر، يقول: إن أعداء الإسلام في الحقيقة يحاربون المسلمين بسبب انتمائهم للإسلام، لكنهم لا يقولون هذا في الواقع.. إنهم يريدون تخدير وعي المسلمين؛ لأنهم بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة، كان لابد من خداع المسلمين؛ فأشاعوا بين ورثة المسلمين أن قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت، وإنما الصراع اليوم على المادة! على الموارد والأسواق والاستغلال فحسب! ويطمئن هؤلاء، الذين يستعمرون أوطان المسلمين، إلى استنامة هؤلاء لهذا التخدير، وبذلك يأمنون غضبة المسلمين لله وللعقيدة.. وعملاء

المستعمرين في الوطن الإسلامي يقولون القول نفسه (الظلال: ٩٢٤ بتصرف).

وفي موضع آخر، يقول: أعداء هذا الدين يحرصون على رفع لافتة إسلامية على الأوضاع التي يُعِدُّونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة؛ لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة الجاهلية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة، والسذج من المسلمين يخدعون في هذه اللافتة.. إن هذا الدين يغلب دائمًا عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية.. إن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها من الشرك والكفر (الظلال: ١٦٤٨ بتصرف).

سيد قطب وقضية العنف

يدعي البعض أن الأستاذ سيد (رحمه الله) فقيه العنف.. وفكره أساس جماعات العنف، وهذا غير صحيح.

ففي تفسيره للآية رقم (٧٧) من سورة النساء، يقول:

"لماذا لم يأذن الله للمسلمين في مكة بالانتصار من الظالم والرد على العدوان ودفع الأذى بالقوة، وكثير منهم كان يملك هذا ..؟ ثم يقول: ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد وضبط أعصاب، ولأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ.. وقد يدفع القتال إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية.. ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات، واجتنابًا إلى إنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت..".

فهل بعد هذا البيان الصريح يُقال عنه: فقيه العنف؟! (الظلال: ٧١٣، ٧١٤ بتصرف).

سيد قطب والوحدة الوطنية

ويدَّعي البعض أن سيد قطب يُفرق بين أبناء الوطن الواحد، وهذا غير صحيح؛ لأنه عند تفسيره للآية رقم (٥) من سورة المائدة، يقول:

"وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلامية في التعالم مع غير المسلمين، ممن يعيشون

في المجتمع الإسلامي "في دار الإسلام"، أو تربطهم به روابط الذمة والعهد من أهل الكتاب".

"إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين، أو منبوذين، إنما يشملهم بجوٍ من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة، والخلطة، فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك، ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة، وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم وهن المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر طيبات للمسلمين، ويقرنُ ذكرهن بذكر الحرائر العفيفات من المسلمات، وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنِّحَل.. وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذي يسمح بقيام مجتمع عالمي، لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية، ولا حواجز بين أصحاب الديانات المختلفة التي

تظلها راية المجتمع الإسلامي فيما يختص بالعشرة والسلوك.." (الظلال: ٨٤٨ بتصرف).

سيد قطب وقضية التكفير

استنبط بعض الشباب فكر التكفير من كتابات سيد قطب، وهذا غير صحيح للأسباب الآتية:

أولاً: أن سيد قطب صرح بعبارات واضحة أن من نطق بالشهادتين فهو مسلم، وذلك في مواضع من الظلال منها:

عند تفسيره للآية (٩٤) من سورة النساء، قال:

"يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة أن لا يبدؤوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا، وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان، إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان" (الظلال: ٧٣٧).

وعند تفسيره للآية (٥٧) من سورة الفرقان، قال:

".. ليست هناك إتاوة ولا نذر ولا قربان يقدمه المسلم، وهو يدخل في الجماعة المسلمة بكلمات ينطق

بها لسانه ويعتقد بها قلبه، وهذه ميزة الإسلام" (الظلال: ٢٥٧٥).

وبما أن البلاد الإسلامية تنطق بالشهادتين.. عُلم أنه لم يكفر أي شخص أو أي مجتمع منها ومن يقول بذلك فقوله ادعاء يحتاج إلى دليل.

ثانيًا: إنما هو نفى الإسلام عمن لم يحرم ما حرم الله بعد علمه بالتحريم وإنكاره وجحوده:

فقد قال في تفسيره للآية (٢٧٦) من سورة البقرة ما يلي:

".. ما من شك أن الذين يُحلُّون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فالإسلام ليس كلمة باللسان، إنما هو نظام حياة ومنهج عمل. وإنكار جزء منه كإنكار الكل وليس في حرمة الربا شبهة" (الظلال: ٣٢٨).

ونفى الإسلام كذلك عمن يرفض تحكيم كتاب الله ويُعرِضُ عنه:

فقد قال في تفسيره للآية (٢٣) من سورة آل عمران ما يلي:

"لا إسلام بغير استسلام لله وطاعة رسوله واتباع منهجه وتحكيم كتابه...".

ثم يقول: "والكفار هم الذين لا يقبلون التحاكم إلى كتاب الله" (الظلال: ٣٧٧).

هذا، وقد وردت عبارات أخرى مرسلة، وهذه تحمل على ما سبق.

ثالثًا: أن المعروف عن **سيد قطب** أنه كان أديبًا، وكتب الظلال بأسلوب أدبي رقيق، فيه شفافية.. وحساسية عالية.. ولم يكتب **في ظلال القرآن** أحكامًا فقهية، وإنما كل ما كتبه عبارة عن خواطر **في ظلال القرآن** .. قال (رحمه الله) في مقدمة الطبعة الأولى:

"يرى فريق من قراء هذه الظلال أنها لون من تفسير القرآن، وقد يرى فريق أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي.. أما أنا فلم أتعمد شيئًا من هذا كله وما جاوزت

أن أسجل خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال".

رابعاً: أن الأستاذ محمد قطب (حفظه الله) نشر في مجلة المجتمع الكويتية بالعدد (٢٧١) في ٢١/ ١٠/ ١٩٧٥م، أن كلام سيد قطب ليس مقصوداً به إصدار أحكام على الناس، وقال: لقد سمعته أكثر من مرة يقول: نحن دعاة ولسنا قضاة.. ويقول: إن الحكم على الناس يستلزم قرينة قاطعة لا تقبل الشك.. نحن دعوة مهمتها بيان الحقائق للناس لا إصدار الأحكام عليهم.

خامساً: سألت السيدة زينب الغزالي الجبيلي الأستاذ سيد قطب قبل اعتقاله في يوليو ١٩٦٥م، عما ورد في الظلال من عبارات يستخدمها بعض الشباب في تكفير الآباء، فأكد لها أنه لا يتعرض للأحكام الشرعية، فهذه يختص بها الفقهاء وهي مفصلة في كتب الفقه. من هذا نفهم أنه لم يكتب الظلال على أنه كتاب في الفقه، وهذا واضح في كتابه الظلال، كما سبق بيانه.

سادساً: الذي يراجع تحقيقات النيابة مع سيد قطب

وأصحابه يجد أنه لم يُكفِّر الأفراد أو المجتمع.

سابعًا: في شهادةٍ له نشرت بجريدة آفاق عربية في ٢/ ٩/ ٢٠٠٤م، كتب المهندس فؤاد حسن علي، الذي كان في قاعة اتهام واحدة مع الأستاذ سيد قطب، وكانا معًا في قفص اتهام واحد، وأثناء الاستراحة التقى المهندس فؤاد والدكتور محمد الجزار الأستاذ سيد قطب، وسألاه عن رأيه في تكفير المجتمع والأفراد.. يقول المهندس فؤاد: فيشهد الله أنه احمرَّ وجهه، وقال: من يستطيع أن يقول: إن هذا المجتمع كافر وأفراده كافرون؟! إن شرط الحكم على كفر أي إنسان هو إقراره بالكفر بمعنى أنه يبلغه عن الإسلام بلاغًا مبينًا فيصر على رفضه، وفي هذه الحالة لابد أن تبلغه أن رفضك هذا كفر، فيقر بهذا. وقد سألناه: أليس ما نُشر في الجرائد عن الإسلام وعن جماعة الإخوان المسلمين يُعتبر بلاغًا مبينًا؟ فأجاب: بل هو بلاغ مسيء.

ونظرًا لأن قضية التكفير قد أثيرت في المعتقل بعد

١٩٦٥م، فقد رأى الأستاذ **حسن الهضيبي** - المرشد العام للإخوان المسلمين حينئذ - أن يحسم هذه القضية في كتابه: "دعاة لا قضاة"، موضحًا عدم تكفير من نطق بالشهادتين والحكم له بالإسلام.. وهو بحث قيم وجيد وحاسم لأي خلاف من هذا القبيل.



الحياة في ظلال القرآن

الحياة **في ظلال القرآن** نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

والحمد لله.. لقد منَّ عليّ بالحياة **في ظلال القرآن** فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله - سبحانه - يتحدث إليّ بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

وعشت - **في ظلال القرآن** - أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض، وإلى اهتمامات أهلها

الصغيرة الهزيلة.. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال.. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال، ومحاولات الأطفال، ولثغة الأطفال.. وأعجب.. ما بال هؤلاء الناس؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل.. النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه؟

عشت أتملى - **في ظلال القرآن** - ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود.. لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.. وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية، في شرق وغرب، وفي شمال وجنوب.. وأسأل: كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن، وفي الدرك الهابط، وفي الظلام البهيم وعندها ذلك المرتع الزكي، وذلك المرتقى العالي، وذلك النور الوضيء؟!

وعشت - **في ظلال القرآن** - أحس التناسق الجميل

بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله.. ثم أنظر.. فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى عليها، وبين فطرتها التي فطرها الله عليها، وأقول في نفسي: أي شيطان لئيم هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟ يا حسرة على العباد!!!

وعشت - **في ظلال القرآن** - أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود.. أكبر في حقيقته، وأكبر في تعدد جوانبه.. إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده، وإنه الدنيا والآخرة، لا هذه الدنيا وحدها.. والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول.

والموت ليس نهاية الرحلة، وإنما هو مرحلة في الطريق، وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله إنما هو قسط من ذلك النصيب، وما يفوته هنا من الجزاء لا يفوته هناك، فلا ظلم ولا بخس ولا ضياع.

على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس، وعالم صديق ودود.

كون ذي روح تتلقى وتستجيب، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ (الرعد: ١٥). ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤). أي راحة، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح؟

وعشت - في ظلال القرآن - أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد.. إنه إنسان بنفخة من روح الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩).. وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). ومسخر له كل ما في الأرض: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ﴾

(الجاثية: ١٢). ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو؛ جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة. جعلها آصرة العقيدة في الله.. فعقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج!

والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان. إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه - كما يتجلى **في ظلال القرآن** - مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول

العصور وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقوام. يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتشريد. ولكنه يمضي في طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقًا من نصر الله، متعلقًا بالرجاء فيه، متوقعًا في كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (إبراهيم: ١٣، ١٤). موقف واحد.. وتجربة واحدة.. وتهديد واحد.. ويقين واحد.. ووعد واحد للموكب الكريم.. وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون في نهاية المطاف، وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد.

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩). ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). وكل أمر لحكمة، ولكن حكمة الغيب العميقة

قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ١٩). ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦). والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها؛ ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ (الطلاق: ١). ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (الإنسان: ٣٠).

والمؤمن يأخذ بالأسباب؛ لأنه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يقدر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجوة من الهواجس والوساوس: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

ومن ثم عشت - **في ظلال القرآن** - هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير.. عشت أرى يد الله في كل حادث وفي كل أمر. عشت في كنف الله وفي رعايته. عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢). ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨). ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١). ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤). ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦). ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق: ٢، ٣). ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦). ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (الزمر: ٣٦). ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج: ١٨). ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد: ٣٣). إن الوجود ليس متروكًا لقوانين آلية صماء

عمياء. فهناك دائمًا وراء السنن الإرادة المدبرة، والمشيئة المطلقة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨). كذلك تعلمت أن يد الله تعمل، ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة، وأنه ليس لنا أن نستعجلها، ولا أن نقترح على الله شيئًا.

فالمنهج الإلهي - كما يبدو **في ظلال القرآن** - موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة، وهو موضوع لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الأرض، آخذًا في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتريه.. إن ظنه لا يسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره في الأرض، أو يهدر قيمته في صورة من صور حياته، سواءً وهو فرد أو وهو عضو في جماعة. كذلك هو لا يهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التي أنشأه الله لها يوم أنشأه.

ولا يفترض في كلتا الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرة قلم! الإنسان هو هذا الكائن بعينه، بفطرته وميوله واستعداداته يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته، وهو يقوده في طريق الكمال الصاعد إلى الله، ومن ثم فإن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل - الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومُنزل هذا القرآن - ومن ثم لم يكن متعسفًا ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج.

إن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد، ولا تستحثه رغبة فانٍ، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة، كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يتعسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى؛ لأنهم لا يصبرون على الخطو المتزن!

وفـي الطـريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر، وتسيل الدماء، وتتحطم القيم، وتضطرب الأمور.

ثم يتحطمـون هم فـي النهايـة وتتحـطم مذاهبهم المصطنعـة تحت مطـارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة! فأما الإسلام فيسير هيِّنًا لينًا مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها.

إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق بالغاية المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المئة أو الألف.. فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة.

ثم يكون دائمًا ما يريده الله أن يكون.. والزرعة قد تسفى عليها الرمال، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ. وقد يغرقها الري، ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل؛ فلا يعتسف ولا يقلق، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة، السمحة الودود.. إنه المنهج الإلهي في الوجود كله.. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

والحق في منهج الله أصيل في بناء هذا الوجود. ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة غير مقصودة.

إن الله سبحانه هو الحق، ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (الحج: ٦٢). وقد خلق الله هذا الكون بالحق لا يتلبس بخلقه الباطل: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (يونس: ٥). ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا

بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١)، والحق هو قوام هذا الوجود؛ فإذا حاد عنه فسد وهلك: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١). ومن ثم فلابد للحق أن يظهر، ولابد للباطل أن يزهق.. ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨).

والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق، باقية بقاءه في الأرض: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧). ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾

(إبراهيم: ٢٤ – ٢٧).

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في الحق والخير والصلاح؟ وأي قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها في الضمير؟

وانتهيت من فترة الحياة – **في ظلال القرآن** – إلى يقين جازم حاسم.. أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله..

والرجوع إلى الله – كما يتجلى **في ظلال القرآن** – له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه

الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار، إنما هو الإيمان.. أو.. فلا إيمان.. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦). ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية: ١٨، ١٩).

والأمر إذن جد.. إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها..

إن هـذه البشـريـة - وهـي من صنع الله - لا تفتح مفاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢).. ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها.. ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة، وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز، ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه

خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٣، ١٤).

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة، البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد، ولن تجد الهدى، ولن تجد الراحة، ولن تجد السعادة، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير!

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثًا هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرًا في كل ما ألمّ بها من نكبات..

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، وأسنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت

البشرية الويلات من القيادات المتعفنة؛ وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس..

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور؛ فكان ذلك مولدًا جديدًا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورًا جديدًا عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعًا اجتماعيًا فريدًا، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاءً..

نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق، بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها.. **في ظلال القرآن**، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن.

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة، ونُحِّيَ الإسلام عن القيادة. نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة، صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان!

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية يضعون لها المنهج الإلهي في كفة والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى، ثم يقولون لها: اختاري! اختاري إما المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدعته يد الإنسان في عالم المادة، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلي عن منهج الله! وهذا خداع لئيم خبيث، فوضع المسألة ليس هكذا أبدًا..

إن المنهج الإلهي ليس عدوًا للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة؛ ذلك

كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض، هذا المقام الذي منحه الله له، وأقدره عليه، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافئ الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع..

على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام، والتقيد بشرطه في عقد الخلافة، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله. فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في عالم المادة في الكفة الأخرى.. فهم سيئو النية، شريرون، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال، وهمَّت أن تسمع لصوت الحادي الناصح، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة، وأن تطمئن إلى كنف الله.

وهنالك آخرون لا ينقصهم حسن النية، ولكن ينقصهم

الوعي الشامل، والإدراك العميق، هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية، وتروعهم انتصارات الإنسان في عالم المادة. فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية، وعملها وأثرها الواقعي في الكون وفي واقع الحياة، ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالاً، وللقيم الإيمانية مجالاً آخر، ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير في طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية، وتعطي نتائجها، سواءً آمن الناس أم كفروا، اتبعوا منهج الله أم خالفوه، حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس!

هذا وهم.. إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية، هما في حقيقتهما غير منفصلين؛ فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواءً بسواء، ونتائجها مرتبطة ومتداخلة، ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره، وهذا هو التصور

الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في **ظلال القرآن**، ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (المائدة: ٦٥، ٦٦). وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢). وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

إن الإيمان بالله، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض.. كلها إنفاذ لسنن الله، وهي سنن

ذات فاعلية إيجابية، نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار.

وقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق، ولكنها تظهر حتمًا في نهايته، وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية، وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما، وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعًا.

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم، تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه

الآخر مهيض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني، ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون.. والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير.

فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم.

وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير، ونظافة في الشعور، وضخامة في

الاهتمامات، ورفعة في الخلق، واستقامة في السلوك..

وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها، سواءً ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية.. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود.

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود، وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته ونشاطه.. هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود، وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود.. وكلها تعمل متناسقة، وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق، بينما تفسد آثارها وتضطرب وتفسد الحياة معها، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣). فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره، وبين مجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع. ولا يوحي

بتمزيق هذا الارتباط، ولا يدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولا يحول بين الناس وسنة الله الجارية، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى، وينبغي لها أن تطارده، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم..

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة **في ظلال القرآن**، لعل الله ينفع بها ويهدي، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.







رصد لمشاعر وأحاسيس الأستاذ سيد قطب التي أفاض الله بها عليه من خلال معايشته للقرآن الكريم، التي تيقن من خلالها أن هذا القرآن إنما جاء ليبني عقيدة المسلم وتصوره وأخلاقه ومشاعره وأوضـ الأمة المسلمة في معركتها مع الداخل والخارج.



يطلب من مركز الإعلام العربي:
٢٠٠ ش الهرم - الجيزة - مصر - ص.ب: ٩٢ الهرم - الجيزة - مصر
ت: ٣٧٨١١١٩٣ - ٣٧٨١١١٩٤ - ف: ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٥ - التوزيع: ٠٠٢٠٢/٣٧٤٤٥٤٥٥ - ٠٠٢/٠١٠٠٠٢٧٠٢٥
البريد الالكتروني: mediacenter55@hotmail.com
الموقع على شبكة الانترنت: www.amc-eg.com